

مكانة مصر في المغرب العربي

للأستاذ محمد السعيد الزاهري

يشاع اليوم في الجزائر أن الآنسة أم كلثوم قد أزمعت أن تقوم بسياحة في بلاد المغرب وأن حكومة مراکش قد رفضت أن تسمح لها بدخول المغرب الأقصى . قالوا ولذلك عدت الآنسة عن زيارة المغربين الآخرين (الجزائر وتونس) وهذه هي المرة الرابعة التي نسمع فيها هذه الاشاعة تتردد في أرجاء المغرب العربي وتكون مشغلة الرأي العام فيه ويهتم لها الناس وينتدفعون في شرحها والتعليق عليها بمختلف الآراء والأقوال : فهذا يقول لقد أحسنت السلطات بذلك إلى أهل مراکش ووفرت عليهم أعراضهم وأموالهم بمنع المطربة المصرية من دخول هذه البلاد ، إذ لو أن هذه الآنسة زارت مراکش لمسكت على أهلها قلوبهم وأهواءهم ، ولذهب بمقولهم وألبابهم ، واستوتت على أموالهم وعلى ما كسبت أيديهم ، ولكانت عليهم في الآخر نكبة مالية كبرى لا تقل في فداحتها وقسوتها عن هذه الضائقة الماتية التي أهلكت الزرع والضرع وأخذت بخائق الدنيا كلها ؛ وذلك يقول لقد ضيقت السلطة بذلك على المغاربة حريتهم الشخصية ومنعتهم مما تهوى إليه أفئدتهم وحالت بيئهم وبين ما يشتهون ؛ وهناك آخر يقول غير هذا

ومهما اختلف الناس في تفسير هذه الاشاعة وفي تأويلها فإنها تدل على شيء واحد وهو أن هذه الآنسة قد غزت بصوتها الملائكي الطروب قلوب هؤلاء الناس ، وأن منزلتها في بلاد المغرب العربي لا تقل عنها في مصر ، وأن المغاربة يتذوقون فيها وغناها كما يتذوقهما المصريون

قالت بحجة «السلام» الفراء التي كانت تصدر في مدينة تطوان في بعض أعدادها إن المغاربة مولعون بالموسيقى المصرية وبالناجين المصري إلى حد الهيام ، حتى أن العواتق في خدورهن ليهتفن بأم كلثوم ويترنغن بألحانها وأغانها . ولقد رأينا بمض الراكشين المشهورين بالتدين والاصلاح قد طرب وانشرح ونسى أنه من أهل الورع والتقوى ، ولم يزل به الطرب والانشراح حتى خرج

عن رذائته ووقاره إلى حالة من العبث والطيش تشبه أن تكووا جنونا ، وذلك حين سمع في « الفونوغراف » صوتا للأستاذ محمد عبد الوهاب . ولا تجد في المغرب الأقصى دارا فيها « فونوغراف » الا وتجد كل اسطواناتها أو جلاها مصرية لأم كلثوم وعبد الوهاب وسامى الشوا ومن إلى هؤلاء . وتباع الاسطوانات المصرية هنا بثمان مرفوع قد يفوق ثمنها الأصلي أضعافا مضاعفة . ولقد صرت علينا أيام رأينا فيها أسطوانات أم كلثوم . وعبد الوهاب تباع الواحدة منها بثلاثة جنيهات انكايزية قبل هبوط الاستراليين والواقع أن الألحان والأغاني المغربية التي كانت إلى عهد قريب منتشرة شائعة في المغرب العربي قد اختفت اليوم من الميدان ، وتخلت عن مكاتها من الذوق المغربي العام لألحان مصر وأغانها ، ولا نستثنى هذا التراث الذي بقي بأيدينا من فن الأندلس وغناها فقد ترحزح هو الآخر عن مكانة للقاء المعري وترك المجال واسما فسيحا

ولما اعلنت الحكومة المصرية أنها ستفتح في القاهرة محط للاذاعة اللاسلكية تهالك الناس في الجزائر وتونس ومراكش على أجهزة المذياع (الراديو) يشترونها ويقتنونها رجاء أن يستمتعوا بسماع ما تذيعه مصر من الأغاني والمحاضرات ، ولكنهم طادوا فجاءوا يبيعون أجهزتهم ببعض قيمتها عند ما تبين لهم أن المحط المصرية لم تكن محطة طالبة بمكثهم سماعها

كل هذا دليل على أن الذوق العام في بلاد المغرب العربي هو نفس الذوق العام في مصر ليس بينهما شديد خلاف . ولعل تونس ومراكش هما أرق من هذه الناحية ، فالحياة فيها مترفة فاعمر تؤثر الطرب والسباع ، وتميل إلى اللغو والاستمتاع ، بخلاف الجزائر فإنها عميقة في البداوة ، مطبقة الجهل والأمية ، لا تزال تغلب عليهم حياة العشائر الأولى ، تشمر القبيلة فيها بأنها قبيلة وكفى ، ولقد تشبه بأنها شعبة من الجزائر فضلا عن أن تشمر بأنها من الأمة المغربي أو الأمة العربية الكبرى . ولعل مدينة وهران قد ضربت الة القياسي في البداوة والأمية وفي البُعد عن العالم العربي دور أنحاء الجزائر كلها ، ومع ذلك فكل مقهى من مقاهيها ، وكل بيت عربي فيها ، فيه « فونوغراف » لا يخلو من الاسطوانات المصرية وإنما نسمع فيها الأتنام الساذجة البسيطة التي تحاكي رص

مكة « زعم فيه كانه أن حججاج الجزائر ومرآكش وتونس وطرابلس ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين والمراق سيتفاهمون في « مؤتمر مكة » لهذا العام باللغة الفرنسية، لأن لكل فئة من هؤلاء الحججاج لغة قومية لا يفهمها الآخرون ، ولأن الفرنسية منتشرة بين جميع الطبقات في هذه الأقطار . وأبي أن يرجع إلى الصواب إلا بعد أن رأى ببينييه وسمع بأذنيه بحارة مصريين يتجادون مع بعض العملة الجزائريين والمراكشيين من غير أن يكون بينهم ترجمان !

وكان عالم فرنسي من علماء المشرقيات جاء بلاد المغرب مندوباً من وزارة المعارف الفرنسية لدرس اللهجات العامية المغربية ، فلبث في هذه البلاد يبحث ويدرس ويستقري ، ثم رفع إلى الوزارة تقريراً بالنتائج التي انتهى إليها في دراسته وأبحاثه ، ونشر هذا التقرير واطلنا عليه فإذا هو مملوء بالأغاليط والأضاحيك ، فقد زعم فيه أن عربياً تونسياً تزوج فتاة عربية من بجاية (الجزائر) فلم يستطع الزوجان أن يتفاهما — لتباعد لثنتهما القوميتين — إلا بالفرنسية التي لم تكن تلم بها الزوجة إلا إلاماً قليلاً . والحق أن هذا التقرير هو دعوة صريحة إلى إيجاد فروق بين اللهجات المغربية وإلى تجسيم ما يكون منها موجوداً بالفعل

وحدثني ذات يوم فنان فرنسي قال : « كنت أعتقد أنه لا بد أن يأتي يوم على المغاربة بصيرون فيه فرنسياً خُلدصاً من حيث تذوق الفن والشعور بالجمال ، غير أنني رجعت الآن عن اعتقادي هذا ، فقد مضى على فرنسا في الجزائر مائة وبضع سنين لم تستطع أثناءها أن تجعل العرب الجزائريين يقبلون على الأفلام الفرنسية ، أو يطربون لسماج طازف فرنسي مهما كان محسناً بارعاً ، أو يتذوقون غناء فرنسياً مهما كان منسجماً ساحراً يستهوى القلوب ويأسر الألباب ، على حين نرى المغاربة جميعاً يقبلون الاقبال الذي لا نظير له على الأفلام المصرية وتستهوهم مصر بأنغامها وأغانيها ، ويمجّبون الإعجاب كله بالفنانين المصريين » . ثم قال : « ولقد رايتني أقبال هؤلاء الناس على شريط الوردة البيضاء وتهالكهم على مشاهدته ، فشاهدته أنا أيضاً ، ولكنني لم أجد في هذا الشريط ما بهجيني ، على أن جميع من في المسرح كانوا

النجائب وخبَّسب الجياد إلى جانب الفن والابداع في أنغام أم كلثوم وعبد الوهاب

ولما عرض فيها للمرة الأولى الشريط المصري « أنشودة الفؤاد » أقبل عليه هذا الجمهور العربي في وهران إقبالاً منقطع النظير طيلة ثلاثة أسابيع ، وبعد بضعة أشهر عُرض المرة الثانية واستمر عرضه ثلاثة أسابيع أخرى فكان الناس إلى الحفلة الأخيرة يتدافعون إليه بحماسة وشوق لا نظير لها حتى أن منهم من شاهده عشر مرات !

وعند ما أزمعت فرقة مصرية للتمثيل الهزلي أن تقوم برحلة في بلاد المغرب قالت عنها جريدة مصرية مُحترمة إنها ستبوء بالفشل الذريع ، وستنقع من الضيعة بالاياب ، أو أنها على الأقل ستكابد في مهمتها ألواناً من الشقة والعناء ما لم تترجم مسرحياتها من اللغة المصرية إلى اللغات المغربية . وقامت هذه الفرقة برحلتها ونجحت في مهمتها نجاحاً باهراً لم يكن يحظر لها على بال ، وتذوق المغاربة رواياتها وفكاهاتها وأدركوا مغزى « النكتة » المصرية من ملامتها من غير أن تضطر إلى ترجمة كلمة مصرية واحدة إلى اللغات المغربية ؛ وبعبارة أخرى إن هذه الفرقة وجدت نفسها في بيئة عربية مغربية لا تختلف عن مصر إلا كما تختلف الهيئة المصرية نفسها باختلاف المديرات والأقاليم ، ووجدت أن كل ما يقال من وجود لغة مصرية ولغات مغربية هو من الأوهام الباطلة التي لا أصل لها ، وإنما يوجد لسان عربي واحد تتكلمه الشعوب العربية (مصر وأخوانها) بلهجات تختلف اختلافاً لا يحول دون التفاهم بين الناطقين بالضاد ، ولا توجد في الدنيا لغة إلا ولها لهجات تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً أو قليلاً

وكثير من الغربيين من يعتقدون أن الشعوب العربية تتكلم اليوم لغات مختلفة متباعدة فيما بينها ، وبמידة كل البعد عن العربية الفصحى التي أصبحت في نظرم لغة موانا . كما أن الشعوب اللاتينية تتكلم اليوم لغات متباعدة فيما بينها جدا حتى لا يمكن للفرنسي أن يفهم الإسبانية أو الإيطالية دون أن يتعلمها ، وهذه اللغات هي الآن بعيدة عن اللغة اللاتينية التي هي أصلها

وفي هذه الأيام نشرت صحيفة فرنسية تصدر بالجزائر مقالة عن الحجج إلى بيت الله الحرام عنوانه : « اللغة الفرنسية في مؤتمر

هذا المغرب العربي ، فلأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده المصري أنصار ومريدون . وفكرة الإصلاح الاسلامي التي كان يدعو اليها أصبحت اليوم في الجزائر مذهبا اجتماعيا تمتنقه الكتلة الكثيفة من الناس وتقوده « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » . وكل أديب كبير في مصر له أنصار وأشياع في بلاد المغرب ، فللأديب الامام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أنصار ومحبون وهو أكثر الأدباء المصريين تلامذة وقراء في هذه البلاد . وللمرحوم قاسم أمين أنصار يدعون المغريبات إلى السفر وترك الحجاب ، غير أن دعوتهم لم تجد ملبيا ولا مجيبا فأخفقت إخفاقا شديدا . والزعماء المصريين منازلهم من قلوب الناس هنا . والمطبوعات المصرية تحتل المقام الأول عندنا ، سواء في ذلك الصحف والكتب والمجلات . والصحف المغربية الأكثر ما تروى عن مصر وما تنشر من أخبارها تكاد تكون طبقات مغربية لزميلاتها المصريات . على أن هذه الصحف المصرية الكبرى لا تنهم لبلاد المغرب إلا قليلا ، ولا تتكلم عنها إلا كما تتكلم عن مجمل من الجاهل التي لم تطأها قدم إنسان ، فن خلط في أسماء المدن المشهورة بالمغرب وفي أسماء الأشخاص البارزين الى حوادث تحو كها عن المغرب وتخطب فيها خبط عشواء

ويقول الشبان المغاربة الذين يطلبون العلم في جامعات فرنسا أنهم تعرفوا الى الطلبة السوريين فعرفوا فيهم العروبة والاعتزاز بها ووجدوا منهم إخوانهم وذوي قرابم ، وتعرفوا الى الطلبة المصريين فعرفوا فيهم رقة النمايل ودماثة الأخلاق وما شئت من لطف وأدب ، وأنكروا منهم هذه « الفرعونية » الجافية التي تجملنا وإياهم كما قال شاعر العروبة الأستاذ ابراهيم طوقان :

أحب مصر ولكن مصر راغبة عني فتمرض من حين إلى حين
إن تاريخ هذه البلاد حافل بالشواهد والبيئات على أن المغرب يرتبط بمصر منذ العصر الحجري بكثير من روابط النسب والحضارة والدين

وإن الذي هو ما بيننا وما بين مصر لمحض النسب رباط العروبة يجمعنا ويجمعنا ديننا والحسب ولكن هل يمكن أن يبعث من جديد ما كان بين المغرب ومصر من الروابط وصلات القرين ؟

وهران (الجزائر) محمد الصغير الزاهري

يشاهدون عبد الوهاب وكأنا هو ملك كريم قد هبط اليهم من السماء ، وينصتون لصوته وكأنا هو نغم إلهي ينزل عليهم من الملأ الأعلى »

وما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية أو الاجتماعية إلا وهو مصري غالبا ، فنلا كتاب « مختصر خليل » في الفقه الاسلامي على مذهب الامام مالك بن أنس هو كتاب مصري قد جعل أفئدة من الناس في المغرب تهوى إلى مصر ، له منزلة سامية في قلوب المغاربة بخصوصه بكثير من التقديس والاحترام ، ومنهم من يتعبدون بتلاوته كما يتعبدون بتلاوة القرآن الكريم ؛ ولم يعد خافيا أمر ذلك الفقيه المرحوم الذي كان يصلي « التافلة » بهذا الكتاب ويقوم به الليل طابعا متهجدا ؛ ولا أذيع سرا حين أقول إن هذا « المختصر » لا يزال له إلى الآن في كلية القرويين بقاس « حزابة » كما للقرآن « حزابة » ، وهم يتقاضون أجورا أو فز وأسنى مما يتقاضاه « حزابة » القرآن العظيم ؛ وتلاوته هذه الراتبة أوقف كما لتلاوة القرآن أوقف . وفي بلاد المغرب طبقة من المحافظين يقولون عن أنفسهم إنهم « خليليون » ، وأهل المغرب جميعا هم مالكية ما عدا وادي ميزاب بالجنوب الجزائري وجربة بالقطر التونسي ، فإن أكثر أهلها أباضية ، ولكنهم قليلون جدا نمددهم لا يتجاوز الحسين ألفا ، بينما تسعد الجزائر وتونس وسرا كش من الأنفس خمسة عشر مليونا يجولون هذا الكتاب ويرفعونه إلى أعلى مقام ، حتى النساء في خدورهن لا يفصل الخصومات التي تتور بينهن إلا الحلف بهذا الكتاب ا

ولا يزال المغاربة ينظرون بعين الاعتبار إلى كل من طلب العلم بالأزهر الشريف ، ولو أنه كان قليل التحصيل ، ويمترفون بالفضل لكل من أقام في مصر أو رآها

وفي بلاد المغرب طرق صوفية منتشرة بين سائر الطبقات لها أكبر الأثر في العقائد والأخلاق ، وأكثر هذه الطرق مستمد من الشيخ البكري المصري ، فأتباع هذه الطرق ومريدوها يحبون البكري ويرون لهم فيه « الشيخ المد » فيرفعونه فوق كل الاعتبارات

وما أنت بواجد ولا مفرييا واحدا إلا وهو يحفظ كثيرا أو قليلا من شعر ابن الفارض الصوفي المصري المشهور وكل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القوي في